ابن جني

وحياته العلمية

صارة اضوالي

الألوكة
www.alukah.net

نروم في هذه الصفحات أن نقدم، لقارئنا العزيز، نظرة عَجلى لأحد أساطين التراث العربي وكباره؛ هو إمام العربية أبو الفتح عثمان بن جني، لما له من إسهامات علمية رصينة في مجالات اللغة، وطرائف لغوية عجية تنم عن فطنة الرجل ودقة نظره وعلو قدره. ولا نخفي عن قارئنا الكريم، أن هذا البحث، كان في بدايته عبارة عن عرض قُدّم في السنة الجامعية الثانية في مادة الصرف العربي، وآثرنا أن نضعه بين يديه لتكثر الفائدة وتعم الاستفادة بحول الله.

نسبه:

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ولد بالموصل"**قبل الثلاثين وثلاثمائة**"[1]هجرية-كما تذكر أغلب المصادر-والراجح أن مولده كان في عام اثنين وعشرين وثلاثمائة(322هـ).

و جنِّي-بكسر الجيم وتشديد النون وبعدها ياء[2]-اسم أبيه الذي "**كان مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي**"[3].

و أبو الفتح عثمان بن جني من أصول غير عربية، لذلك يقول في قصيدة له مفتخرا بشرف مكانته العلمية:

فإن أصبح بلا نَسَب فعِلمي في الورَى نسَبِي

على أني أؤُول إلى قُرُومٍ سادةٍ نُجُب

قَياصِرةٌ إذا نَطَقوا أرمّ الدهر ذو الخطُب

أُولاكِ دعَا النبي لهم كفَى شرفاً دعاءُ نبيّ[4]

[1]-معجم الأدباء:1585/4، وفيات الأعيان:246/3، بغية الوعاة:132/2.
[2]-وفيات الأعيان: 248/3.
[3]-نزهة الألباء، ص:244.
[4]-المصدر نفسه، ص:244.

و قد عقّب محمد علي النجار-محقق كتاب الخصائص لابن جني- على هذه الأبيات الشعرية قائلا:"**وكأنما كان ابن جني يحس ضمّة عند الناس أن لم يكن من أصل غير عربي، فَعُنِي أن يَنْضَح عن نفسه، ويذكر أن عنده ما يعوضه هذا النقص، ويأخذ بضَبْعه نحو المعالي وباسقات الشرف**"[1].

"كان أبو الفتح عثمان بن جنّي ممتعا بإحدى عينيه، فلذلك يقول في صديق له:

صددوك عنّي ولا ذنب لي دليل على نيَّة فاسدهْ

فقد وحياتك مما بكيت خَشِيتُ علَى عَيني الواحِدهْ

ولولا مخافةُ أنْ لاَ أَرَاك لما كان في تركها فائدهْ[2]

و قد أورد ابن خلّكان هذه الأبيات وأضاف:"**وقيل إن هذه الأبيات لأبي منصور الديلمي**"[3].

و كان من عادته "**أن يميل بشفته ويشير بيده**"[4]-حسب ما ورد في معجم الأدباء-، ذلك أنه حضر يوما إلى أبي إسحاق في الديوان وكان معه أبو الحسين القمي، فبقي أبو الحسين يحدق فيه النظر حتى سأله ابن جني:" ما بك يا أبا الحسين تحدق إلَيَّ النظر؟"، فقال:"شيء طريف"، قال:" ما هو؟"، قال:" شبّهت مولاي الشيخ وهو يتحدّث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا بقِرد رَأَيتُه اليوم عند صعودي إلى دار المملكة، وهو على شاطئ دجلة يفعَل مثلما يفعل مولاي الشيخ"، فامتعضَ أبو الفتح، فقال:"ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أَمْجُن فتمجُن بي؟"، فلما رآه أبو الحسين قد غضب قال:" المعذِرَة أيها الشيخ إليك وإلى الله تعالى عن أن أشبِّهك بالقرد، وإنما شبَّهتُ القرد بك"، فضحك أبو الفتح لذلك[5].

[1]-الخصائص-مقدمة التحقيق، ص:7.
[2]-معجم الأدباء:1588/4.
[3]-وفيات الأعيان:246/3.
[4]-معجم الأدباء:1586/4.
[5]-المصدر نفسه:1586/4.

و ما يمكن أن يُستَشف كذلك من هذه القصة الطريفة، جِدّية ابن جني وحسن سيرته، وصدق أقواله وأفعاله، فلم يُؤْثَر عنه ما أُثِر عن غيره من رجال الأدب في عصره من لهو وشراب ومجون، ولعل قوله"ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أمجن فتمجن بي" فيه من الدّلالة ما يؤكد خلُقَه الحسن الرفيع[1].

طلبه للعلم وشيوخه:

نشأ ابن جني بالموصل، وتلقى مبادئ تعلمه فيها.

و قد تلقى ابن جني العلم على يد مجموعة من العلماء والشيوخ، منهم:

- أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب العطّار المعروف بابن مِقْسَم المتوفى سنة أربعة وخمسين وثلاثمائة هجرية(354هـ)، وهو تلميذ ثعلب.
- أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المتوفى سنة ستة وخمسين وثلاثمائة هجرية (356هـ).
- الأخفش الموصلي، واسمه أحمد بن محمد أبو العباس الموصلي النحوي[2].

أضف إلى هؤلاء، العالم اللغوي الشهير أبي علي الفارسي(ت388هـ)، حيث توثّقت الصلات بينهما حتى نبغ ابن جني بسبب صحبته إياه، وقد دامت تلك العلاقة مدة أربعين سنة[3].

ويعود سبب توطّد هذه العلاقة بين ابن جني وأستاذه أبي علي الفارسي إلى يوم اجتاز فيه الفارسي الموصل، فمر بالجامع–وقد كان ابن جني شابا يقرئ النحو–فسأله عن مسألة صرفية فقصّر ابن جني فيها، لذلك قال له أبو علي: "**زبّبت قبل أن تحصرم**"[4]، فلزمه ابن جني منذ ذلك الحين، واعتنى بمسائل التصريف أشدّ العناية.

[1]-الخصائص-مقدمة التحقيق، ص:14.
[2]-شرح التصريف-مقدمة التحقيق، ص:22.
[3]-ورد ذلك في جملة من المصادر أهمها: نزهة الألباء، ص:245، معجم الأدباء:1589/4، إنباه الرواة:336/2، بغية الوعاة:132/2.
[4]-نزهة الألباء، ص:245.

صحبته للمتنبي:

صحب ابن جني المتنبي دهرا طويلا[1]، وكان يجتمع به في حلب عند سيف الدولة بن حمدان، وفي شيراز عند عضد الدولة، "**وقد كان يناظره في كل شيء من النحو**"[2]. ونظرا لهذا الاحتكاك الأدبي واللغوي الذي كان يجمع كلاّ من المتنبي وابن جني، فليس من المستغرب أن نجد لابن جني في هذا الباب مصنفات تكشف الغطاء عن شعر أبي الطيب كما يصرح بذلك علي الباخرزي في دمية القصر فيقول:"**ليس لأحدٍ من أئمة الأدب في فتْح المُقفلات، وشرح المشكِلات ماله، فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب ولا سيما في علم الإعراب. ومن تأمّل مصَنَّفاته وقع على بعض صفاته، فوَرَبي إنه كشف الغطاء عن شعر المتنبي، وما كنت أعلم به أنه ينظِم القريض...**"[3].

ونجد له في هذا السياق أيضا مرثيّة في المتنبي مستهَلَّة بقوله:

غاضَ القريضُ وأَوْدَتْ نُضْرَةُ الأَدبِ وصَوَّحَتْ بعدَ رِيٍّ دوْحةُ الْكُتُبِ

"وكان المتنبي يقول في أبي الفتح: هذا رجل لا يَعْرِف قَدْرَه كثير من الناس. وسئل المتنبي بشيراز عن قوله:

وكان ابنا عدو كاثراه له ياءَيْ حروفِ أُنِيسان

فقال[المتنبي]:لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرا لفَسَّرَه"[4].

فهذه أقوال، كلها، تفسّر قوة العلاقة التي كانت تربط أبا الفتح بالشاعر العباسي أبي الطيب المتنبي، كما أنها تفصح، بشكل جليّ، عن العصر الذي نشأ خلاله ابن جني، وبانت فيه جهوده العلمية

[1]-يتيمة الدهر:137/1.
[2]-معجم الأدباء :1588/4.
[3]-دمية القصر:1481/3.
[4]-معجم الأدباء:1588/4.

وخاصة اللغوية منها، وهو العصر العباسي في القرن الرابع للهجرة، حيث"**خدم أبو الفتح بن جني البيت البويهي: عضد الدولة وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة**"[1].

جهوده النحوية والصرفية:

خدم النحوي الجليل أبو الفتح عثمان بن جني علمَ اللغة بكل إخلاص وأمانة علمية–وإن كان أصله غير عربي–فهو"**القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب**"[2].

فقد بصم الأدب بآثاره الخالدة، وما فطنته التي تعكسها قواعده المبثوثة بين ثنايا كتبه إلا دليل على جلالة قدره وغزارة علمه وفضله على هذه الأمة، ولا سيما ما يتعلق بعلوم العربية بما فيها الصرف والنحو، لذلك، فلا غرو أن نجد من ثلة النحويين والعلماء من يثني على جهوده ويشيد بفضله، فهذا أبو البركات الأنباري يقول: "**كان من حذَّاق أهل الأدب، وأعلمهم بعلم النحو والتصريف...ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف، فإنه لم يصنّف أحد في التصريف، ولا تكلم فيه أحسن ولا أدقّ كلاما منه**"[3].

فقد برع ابن جني في صنعته، وطمح في تفكيره، فسعى بكل جهده إلى تفسير الظواهر اللغوية، والتعمق في تعليلها، فجاءت محاولاته جد دقيقة في استنباط الأصول العامة وتقعيد مختلف المبادئ اللغوية، لذلك كانت أعماله ريادية في هذا المسار، وترك آثارا بالغة في الذين جاؤوا بعده.

"**ويعتبر أبو الفتح بن جني بعد الخليل بن أحمد، ثاني عبقري نظر إلى اللغة العربية نظرة شاملة**"[4]، فتسلح باللغة النحوية والصرفية في جملة أعماله، إذ عمد إلى إبراز خصائص اللغة وأصولها في كتابه الفريد الشهير"**الخصائص**"بناءً على جهود سابقيه، من جملتهم شيخه الموسوعي أبي علي

[1]-إنباه الرواة:340/2.
[2]-يتيمة الدهر:137/1.
[3]-نزهة الألباء،ص:244.
[4]-تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص:194.

الفارسي، علاوة على ذلك، "**فقد أفاد من المنحى المنطقي الذي سلكه ابن السرَّاج في أصوله**"[1]، فيكون بذلك قد ألغى الحواجز التي كانت تفصل فيما قبل بين النحو وأصول اللغة.

ومن المباحث التي اهتدى لها ابن جني في أبواب التصريف مبحث **الاشتقاق الأكبر**، فهو رائد هذه المسألة الصرفية التي استلهم معالمها من أستاذه أبي علي الفارسي، فكان له "**فضل تقعيدها وبيان مناسبة بعض المعاني لبعض الأصوات مهما قلبت أصولها**"[2]، وهذا ما نلمسه أثناء حديثه في باب الفصل بين الكلام والقول، فنجده يوضح **منهج الاشتقاق الأكبر**[3]، وفائدة تقليب الحروف وهو الاشتقاق الأكبر[4].

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب-الخصائص- يخصص ابن جني جزءاً مستقلا بالاشتقاق الأكبر، فيُعَرِّف به بعد تقسيمه إلى اشتقاق أصغر واشتقاق أكبر، وإيراد تقاليب مختلف الأصول(ج ب ر /ق س و/ س م ل)[5].

والحديث عن ابن جني يستدعي بالضرورة الحديث عن دراساته المتضمنة لأحكام حروف المعجم ومواقعها في كلام العرب، ونعني هنا، بالخصوص، كتابه"**سر صناعة الإعراب**" الذي اشتمل على الصيغ المختلفة للقواعد الصوتية بصورة واضحة، فنجده يميز بين الصوت والحرف واشتقاق كلّ منهما، ومخارج الحروف و أقسامها، فيقول في باب الباء-على سبيل المثال-:"**الباء حرف مجهور، يكون فاءً، وعيناً ولاماً. فالفاء نحو بئر وبَعَثَ. والعين نحو ضبر وشَبِعَ... واعلم أنهم قد سمَّوا هذه الباء في نحو قولهم: مررت بزيد، وظفرت ببكر، وغير ذلك مما تصل فيه الأسماء**

[1]-المصدر نفسه، ص:194. ويقصد بـ"أصوله" أي كتاب أبي بكر السرَّاج الموسوم بـ"الأصول في النحو".
[2]-اللمع في العربية-مقدمة التحقيق، ص:8.
[3]-الخصائص:5/1.
[4]-المصدر نفسه، ص:12/1.
[5]-الخصائص:2/133-139.

بالأفعال مرة حرف إلصاق ومرة حرف استعانة، ومرة حرف إضافة، وكل هذا صحيح من قولهم"[1].

وقد استطاع بذلك ابن جني بتوفيق الله أن يحرز قصب السبق إلى الغاية ويبلغ من ذلك فوق قدر الكفاية[2].

ومن أشهر ما صنّف أبو الفتح كتابَه "**اللمع في العربية**" الذي "**يتّسم بالشمول والاختصار والوضوح**"[3]، فقد حاول أن يبسّط أسلوبه في هذا الكتاب، ولعل ذلك عائد إلى غرض تعليمي بالدرجة الأولى حتى يشمل الإفهام جميع الفئات الطلابية، وهو البارز من قول جمال الدين القفطي:"**فلهذا، انتفع به الطلبة [الجمل في النحو]. وهو كتاب المصريين وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام إلى أن اشتغل الناس "باللمع" لابن جني، والإيضاح لأبي علي الفارسي**"[4].

وللإشارة، فإن ابن جني قدم أعمالا –لا تقل أهمية عن التي سبقتها– في علوم أخرى تصبّ في قالب الأدب عموما كالعروض والقافية وشرح الشعر...

شعره:

لم تكن شهرة ابن جني في نظم الشعر كنظيرتها في علم الصرف والنحو، فنجد ممن ترجم له يقول:" **وكان الشعر أقل خلاله، لعظم قدره وارتفاع حاله**"[5]، وقول الباخرزي في دمية القصر:"**وما كنت أعلم به أنّه ينظِم القريض، أو يُسِيغ ذلك الجَريضَ، حتى قرأت له مرثيّتَه في المتنبي وأولها:**

غاض القريضُ وأَوْدَتْ نُضْرَةُ الأدَبِ وصوَّحَت بعْد ريٍّ دوحةُ الكُتُبِ"[6]

[1]-سر صناعة الإعراب، ص:119-122.
[2]-تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص:197.
[3]-المصدر نفسه، ص:197.
[4]إنباه الرواة:161/2.
[5]يتيمة الدهر:137/1.
[6]دمية القصر:1481/3.

لكنه مع ذلك كان له نصيب من إنتاج الشعر، و"**كان يتعاطى في شعره الغريب والمُعَقَّد من الأساليب، وأنه لم يعنى بالشعر، فقد كان همّه العلم، وكان غِناه به، وكانت به حُظْوَته عند الملوك وذوي السلطان، فلم يكن يحتاج إلى الشعر يستميح به**"[1].

وله في الغزل من مجزوء الوافر:

غزالٌ غير وحشيٍّ حكى الوحشِيُّ مقلَته

رآه الورد يجني الور د فاستكساه حُلَّته

وشمَّ بأنفه الريحا ن فاستهداه زَهرته

وذاقت ريقُه الصهبا ءُ فاختلسته نَكْهته[2]

وقد أورد له الثعالبي في اليتيمة أيضا:

أيا دارهم ما أنت أنت مذ انتوَوْا ولا أنا مذ سار الرَّكَّاب أنا أنا

وجود المنى ألا يكاثر بالمنى ونيل الغنى أن لا يكاثر بالغنى

ومن كان في الدّنيا أشدّ تصوُّرا تجِدُه عن الدنيا أشد تصوُّنا[3]

وله أيضا:

رأيتُ محاسنَ ضحكِ الربيع أطال عليها بكاءَ السحابِ

وقد ضحك الشّيبُ في لمتي فلم لا أبكِّي ربيعَ الشبابِ

أأشربُ في الكأس كلاّ وحاشا لا أبصره في صفاء الشرابِ[1]

[1]الخصائص-مقدمة التحقيق،ص:49.
[2]-يتيمة الدهر:137/1-138.
[3]-المصدر نفسه:138/1.

إضافة إلى ما تقدّم معنا من أبيات شعرية صاغها ابن جني في مختلف المقامات، فإنه مع ذلك لم يكن مشهورا به، ولم يبلغ من الشعر المكانة التي علت بها همّته وحظي بها شأنه في باقي العلوم الأخرى.

تلامذته:

لقد استطاع ابن جني أن يفتح أبوابا كثيرة في العربية لم يتسنَّ لغيره فتحها، فأصاب في اجتهاداته، ودقَّقَ في محاولاته، فشمل إيضاحه ما كان مستغلقا و بساطته ما كان معقّدا، فوضع اللبنات الأساسية في صرح الدراسات اللغوية الشامخ، لذلك كان بحق قائدا في زمانه يحتاج إلى تلامذة مطيعين وأتباع حريصين على الاستفادة مما وهبه الله عز وجل من جاه وعلم غزير.

فكان ممن مضى على سبيله وحذا حذوه أبو القاسم الثمانيني[2]، ونجد له شرحا لكتاب "**التصريف**" لابن جني بتحقيق الأستاذ "إبراهيم بن سليمان البعيمي"، و من هؤلاء أيضا أبو أحمد عبد السلام البصري، وأبو الحسن علي بن عبيد الله السّمسمي[3].

ومن اللغويين الذين استرشدوا بكتبه ابن سيده في محكمه، فنجده يستشهد بمعظم ما ورد في تصانيف ابن جني دون عزو تلك الاستشهادات إلى صاحبها. يقول محمد علي النجار:"**على أنه أتيح لغويّ كبير، أغار على فوائده وبحوثه اللغوية. ذلك هو ابن سيده علي ابن أحمد المتوفّى458، وهو كثيرا ما يغفل العزو إليه في كتابه المحكم، ويأتي صاحب اللسان فينقل ما في ابن سيده وينسبه إليه وهو لابن جني، وهذا بحث يحتاج إلى بسط واستقصاء**"[4].

[1]-معجم الأدباء:1489/4.
[2]-نزهة الألباء، ص:245.
[3]-المصدر نفسه، ص:246.
[4]-الخصائص-مقدمة التحقيق، ص:29.

وممن نقل عنه أيضا صاحب كتاب "**سر الفصاحة**" ابن سنان الخفاجي، وابن الأثير في "**المثل السائر**"[1] و آخرون، فاستعانوا بأفكاره وأخذوا من كتبه ولا سيما كتاب الخصائص ما يشبع نهمهم في شتّى المسائل والفوائد.

تصانيفه:

خلّف ابن جني كتبا عديدة تشهد له بفضله وعلوّ كعبه وقدره، "تزيد عن ستّين مؤلفا"، ذكر منها ياقوت عددا كبيرا أوردها ابن جني في إجازته التي أمر "أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن نصر" بكتابتها، ثم عقّب عليها بالإشارة إلى الكتب غير المذكورة فيها[2]. وقد صدق ابن جني حين وصف كتبه فقال:

تناقلتها الرّواة لها على الأجفان من حدب

فيرتع في أزاهرها ملوك العُجْمِ والعرب[3]

ومن أهم مؤلفاته–إضافة إلى التي سلف ذكرها– نذكر:

"شرح تصريف المازني" وهو الذي سمّاه "المنصف"، "شرح مستغلق الحماسة"، "محاسن العربية"، "المحتَسَب في إعراب الشواذ"، "المذكر والمؤنث"، "مختصر العروض والقوافي"، "التذكرة الأصبهانية"، "الألفاظ المهموزة"، "تفسير أرجوزة أبي نواس"...

و قد "**توفي ابن جني يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر صفر، سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة في خلافة القادر**"[4].

[1]-المصدر نفسه، ص:31-32.
[2]-معجم الأدباء:4/1597-1600.
[3]-المصدر نفسه:4/1593.
[4]-نزهة الألباء، ص:246.

- **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: إحسان عباس، دار العرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1993.**
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت/لبنان، 1978.**
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، سوريا، ط1، 1964.**
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق: ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1985.**
- **الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، لبنان، (د. ط)، (د. ت).**
- **شرح التصريف، عمر بن ثابت الثمانيني، تحقيق: إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرشد، السعودية، ط1، 1999.**
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي/القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية/بيروت، ط1، 1986.**
- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، شرح وتحقيق: مفيد محمد قمجة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1983.**
- **دمية القصر وعصرة أهل العصر، أبو الطيب الباخرزي، تحقيق ودراسة: محمد ألتونجي، دار الجيل، لبنان، ط1، 1993.**

- **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، محمد الختار ولد اباه، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2008.**
- **اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي، عمان، 1988.**
- **سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، دراسة وتحقيق: حسن هنداوي.**